هنريك سنكيفتش

HENRYK SIENKIEWICZ

***

مات هنريك سنكيفتش · قضى اعظم متفنن بولندي · مات من كان يمثل الروح البولندية امام الرأي العام ، ومن كانت تعقد عليه آمال مواطنيه

اكثر قراء العربية يجهلون من هو سنكيفتش ؛ فان كتبه العديدة لم تنقل اليها · وما اقل الذين قرأوا منا مؤلفاته أو بعضها باللغات الاجنبية وما ذلك الا لكساد الاداب الصحيحة في اللغة العربية ، ولاقبال القوم على سخيف الروايات الزقاقية ، ولجعل اكثر الكتاب اقلامهم وقفاً على الخسيس من الكلام ؛ ولاحجام المعربين عن نقل المؤلفات الجليلة كروايات سنكيفتش خوفاً من ضياع اوقاتهم الثمينة ، فهم يصرفونها عوض ذلك في تعريب روايات « كاللص الشريف » و « تقولا كارتر » و « روكامبول » وما شاكل

فلكي نعرفه الى قراء العربية يكفي ان نقول انه من كبار المتفننين في عالم الادب · كان اعظم كاتب بولندي واشهر مؤلف للروايات التاريخية · وسيذكره تاريخ الادب في مصاف اعظم الكتاب · بمؤلفاته اكتسبت الاداب البولندية ، بل آداب العالم أجمع غنىً وافراً وجمالاً خالداً نادر المثال ·

ولد سنكيفتش سنة ١٨٤٦ في مزرعة اوكريسكا في عائلة قديمة عريقة النسب ، اصلها من ليثوانيا . وتعلم دروسه الاولية في مدرسة القرية . ولما بلغ السادسة عشرة من سنيه غادر مسقط رأسه الى وارسو فدخل فيها مدرسة الجمنازيوم ثم تخطاها الى جامعة وارسو فانهى دروسها .

وكان جو وارسو لما قدمها سنكيفتش متلبداً بغيوم الثورة اذ كان البولنديون يستعدون لثورة سنة ١٨٦٣ التي كانت سيئته العواقب . فاختلج قلب الشاب هنريك بحب الحرية مع قلوب مواطنيه وشاركهم في هذه الحركة بعض المشاركة عملاً عَلَى تحرير بولندا . ولما اخفق المسعى انصرف الى الكتابة

دخل سنكيفتش ميدان الجهاد الادبي في زمن كانت به الفئة المتهذبة من البولنديين مهتمة بالمبادىء الشعبية ، ومنها السعي لتأليف جمعيات للعمال ، ونشر المعارف بين العامة وافادتها . فقدم صاحب الترجمة ما عليه من الواجب نحو هذه الحركة الادبية في شكل قصص وابحاث كتبها ظهرت فيها موهبته الكتابية ايما ظهور فاقبل عليها القراء من الجمهور وأقر له عالم الادب بانه كاتب لا يبارى . عَلَى ان مواطنيه لم يظهروا اعجابهم الفائق به ولم يعبدوه عبادة الصنم الا بعد ان صدرت رواياته التاريخية الثلاث المتسلسلة الشهيرة « بالنار والسيف » — وهي اعظم ما كتبه — و « الطوفان » و « پان ڤولوديڤسكي » . في هذه الروايات نفخ سنكيفتش روحاً حية في انقاض بولندا وابدع جسماً ودماً لكل ما يفاخر به البولنديون ويعتزون به من تذكارات ماضيهم المجيد . فجسم لهم قوة بولندا القديمة وامجادها

وجهادها فاصبح معظماً عزيز القدر عند مواطنيه لما أحياه لهم من ماضيهم في وقتٍ يئسوا به من مستقبل حسن ·

أثرت كتابات سنكيفتش في شعبه أشد التأثير فهاجت فيهم شعوراً وطنياً أدى الى عصر يقظة ونهضة عرف به الشعب البولندي قدر نفسه وعاد عَلَى الموءلف بالمجد والفخار والاكرام من قومه الذين أعلوا قدره وعدوه زعيماً لهم · فعرف في اوربا برجل بولندا وطار صيته فيها واصبحت كلمته يرن صداها من قطر الى قطر فتسمعها الشعوب ويحترمونها ككلمة صادرة عن امة لا عن فرد · وترجمت موءلفاته الى كل اللغات الاوربية فصادفت رواجاً باهراً ولا سيما روايته المدعوة « كوڤادس » أي « أين ذاهب » فقد بيع منها وحدها ما ينوف عَلَى مليون نسخة ·أما موضوع هذه الرواية فتاريخي ديني · ووقائعها مأخوذة من ايام الاضطهادات المسيحية عَلَى زمن نيرون الامبراطور الروماني · ومما يروى بصددها ان الموءلف كان ينشرها تباعاً في احدى جرائد وارسو · فلما وصل فيها الى حيث القي القبض عَلَى « ليجيا » بطلة الرواية أحدث هذا الامر تأثيراً سيئاً في شعور الاوانس البولنديات · فارسلنَ الى الموءلف وفداً يرجونه ألاَّ يدع البطلة تموت في السجن · وقالت له احداهنَّ مسترحمة — المسألة بسيطة ، يا سيدي · وهي أن تجد لها سبيلاً للهرب · مثلاً — ان تكتب الى حبيبها رسالة وتعلمه بحالها فيأتي وينقذها · فابتسم سنكيفتش وطلب الى الانسة المتكلمة ان توءلف الرسالة بنفسها وترسلها اليه لينظر في امرها · فكان انه تناول من البريد بعد ايام

هنريك سنكيفتش

رسالة هذه نصها —

« عزيزتي ليجيا ! كان يجب عليك ، عَلَى ما يلوح لي ، ان تكتبي رسالة الى ڤينيسيوس ، ولكن مرضك أضعف قواك الانشائية · فاكتبي اذن رسالة بسيطة الى المدعو هنريك سنكيفتش القاطن وارسو بعدك باجيال · فاني واثقة من انه سيدبر امرك دون عناء اذا رجوته بلطف · وحينئذٍ لا تبقى لك حاجة الى مكاتبة سواه · اعانقك بشوق · والسلام عليك من محبتك ··»

ومن اعمال سنكيفتش انه خطر له سنة ١٨٧٧ ان يسعى لتحقيق فكرة جالت في عقول كثيرين قبله من الحكماء والشعراء · وهو تأسيس « أوتوپيا » أي بلاد سعيدة محفوفة بالرغد والحرية والمساواة شبيهة بالفردوس · فجاء الولايات المتحدة لعلمه انها البلاد الوحيدة التي تسهل له تحقيق امنيته ·· فأسس مستعمرة صغيرة لهذا الغرض قرب مدينة لوس انجلس في كاليفورنيا فكانت انموذجاً صغيراً للفكر الكبير الذي توخاه ، ولكنه أخفق في الاخير كما أخفق سواه قبله وخلت المستعمرة ·

وقد نال سنكيفتش جائزة نوبل في الاداب لعام ١٩٠٥ وعين عضواً شرفياً في مجمع العلوم الروسي وهو شرف قلما يحلم رجل بولندي بنيله

ومما يذكر من اعماله الوطنية وقفته في وجه الامبراطور غليوم الالماني وكتابته ذلك الكتاب المفتوح اليه محتجاً فيه عَلَى ما كانت بروسيا تأتيه من المظالم والقسوة في معاملة البولنديين · فكان لعمله هذا ضجيج استحسان اثار الرأي العام في اوربا عَلَى بروسيا ·

ولما اتقدت نار الحرب الحالية واكتسحت بنكبتها العظمى بلاده هب لتخفيف ويلاتها وجبر ما صدعته . واضطر ان يهجر بلاده بعد ان سجن واضطهد في كراكوف بايدي التوتونيين . فجآء سويسرا وألف هنالك لجنة مركزية لاسعاف منكوبي بولندا فصار لها فروع شتى أهمها في الولايات المتحدة . وظل على رئاستها يدأب مكرساً كل وقته وقواه لمساعدة وطنه المنكوب غير متداخل بشوءون السياسة مترقباً زوال الغيوم المظلمة عن جو بولندا حتى مات في ڤيڤاي — سويسرا — في السابع عشر من تشرين الثاني وله من العمر ٧١ عاماً .

لسنكيفتش موءلفات عديدة أهمها ما ذكرناها سابقاً ويليها في الاهمية « فرسان الصليب » و « آل پولانيتسكي » وهما روايتان تاريخيتان . و « بلا عقيدة » وهي رواية اجتماعية . ورواية « في الصحراء » و « القصص الاميركية » .

وقد شعر الشعب البولندي بفداحة ما اصابه من الخسارة بفقد سنكيفتش فلبس الحداد حزناً باكياً فيه الكاتب القدير والزعيم الجسور والوطني الحر

ليمسك احدنا بيد الاخر ولنتقدم بشجاعة ولو على الهلاك لنهيء للاجيال الاتية حياة سعيدة حرة نقية . (كوپرين)